

الفصل الخامس

العلوم المساعدة للتاريخ

بعد أن اتسع نطاق علم التاريخ فشمّل مظاهر الحياة البشرية في كل أشكالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بدأ التقارب يزداد بين الدراسات التاريخية والعلوم الأخرى كي تساعدنا بالنتائج التي حصلت عليها من أجل استكشاف حقيقة الماضي ، ووضعها في إطارها الصحيح .

ومن هنا أخذت العلوم المساعدة في الازدياد . وتختلف أهمية هذه العلوم باختلاف الموضوع الذي يقوم الباحث بدراسته ، والعصر الذي يتعرض له .

والباحث في التاريخ يلزمه أن يتقن هذه العلوم ويحسن الانتفاع بها . وغالبا ما تد هذه العلوم المؤرخ بما يحتاج من مواد مساعدة في أثناء كتابة بحوثه ، فاعلماء المختصون بأوراق البردى يمدون مؤرخ التاريخ القديم بما لديهم من نصوص سواء كتبت بلغة هيروغليفيّة أو هيراطيقيّة أو ديموطيقيّة أو يونانية و علماء الآثار القديمة يمدونه بنتائج حفائرهم الأثرية وبمعلوماتهم الخاصة عن التماثيل والخزف وأدوات البناء ، وعلماء النبات بتأكدون من صحة قطع النقود أو المعادن وتاريخها ويقدمونها الى المؤرخ على طبق من فضة للاستفادة منها وعلماء دراسة الأختام يدللون على صحة الوثائق المختومة حتى يمكن أن يستفيد منها المؤرخ ، وعلماء الأنساب يبرهنون على صحة تسلسل النسب ، ويقدمون الجداول الخاصة بذلك ليستفيد منها المؤرخ ، والمفهرسون في دور الكتب يمدون المؤرخ بالمعلومات اللازمة عن الكتب والمؤلفين عن طريق الفهارس والكتالوجات لمساعدته في اعداد دراساته والمعمّيون الذين يعدون المعاجم ويبينون اشتقاق الكلمات غالبا ما يكون عملهم ذا فائدة للمؤرخ ، والمختصون بالعلوم الاجتماعية والنفسية الذين يقومون بعمل الإحصاءات عن تعداد السكان ، والتطور

الاجتماعى وغيره يمكن ان يكون عملهم ذا نفع للمؤرخ^(١) ولا ريب فى ان ابن خلدون كان ابعد نظرا عندما رأى ان يحصل المؤرخ على ثقافة اجتماعية تعينه على تفهم حوادث التاريخ ، وهذا ما دفعه الى الحديث عن علم العمران .

والى جانب ذلك فان علماء حساب التواريخ الذين يقومون بشرح التقاويم العديدة يمكن ان يبسطوا للمؤرخ مسألة قياس الزمن وضبطه^(٢) يضاف الى ذلك ان من واجب المؤرخ ان يكون ملما بالفلسفة ، وعلم الاجناس ، والجغرافيا والعلوم الطبيعية التى تتصل بالتاريخ مثل علم طبقات الارض وغيره ، كما يتحتم عليه ان يتمتع بثقافة سيكولوجية حتى يكون قادرا على تفهم الحياة المعاصرة ، والكشف عن الحقيقة التاريخية معتمدا فى ذلك على ان الدراسة التاريخية تتجه فى المقام الاول الى خدمة الاغراض الانسانية والعلمية ، فالانسان دائم الشعور بالحاجة الى تكوين صورة واضحة عن الماضى بحيث تكون هذه الصورة اطارا عاما لنشاطه فى الحاضر الذى يمكن القول بانه نقطة تقاطع بين الماضى والمستقبل ، وهذا هو السبب فى ان كل جيل يشعر بالضرورة التى تدفعه الى اعادة كتابة تاريخه^(٣) .

وفىما يلى نعرض لبعض العلوم المساعدة للتاريخ :-

(١) هناك فارق أساسى بين التاريخ والعلوم الاجتماعية فالاول يهتم بالأحداث الفردية الماضية فى ترابطها الزمنى فى حين ان الأخيرة تحاول ان تنظم الأحداث الحاضرة والماضية فى نظريات أو قوانين وصغية ومع هذا فان مجال التعاون بينهما واسع وثماره مفيدة .

(٢) التفاصيل انظر : لويس جوتشلك : كيف نفهم التاريخ — مداخل الى تطبيق المنهج التاريخى — ترجمة عائدة سليمان وأحمد أبو حاكمة بيروت ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٦ هـ ١٤٨ — ١٥٢ .

١ - الفقه :

الفقه في اللغة يعنى الفهم والفتنة بوجه عام ، ثم اختص بعلوم الشريعة واصول الدين ^(٤) كما يعنى العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية ، وبعبارة أخرى هو تطبيق أحكام الشريعة على أعمال البشر للفصل بين حلالها وحرامها والفقه علم مستنبط بالرأى والاجتهاد من أئمة القوم المعنيين بأمر الدين كالصحابة ومن اليهم من التابعين وغيرهم وخاصة انه يشمل جميع العلوم الدينية والغرض منه استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها الأربعة وهى الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس .

ومن المنطوق أن يجد الباحث في التاريخ الإسلامى في كتب الفقه كثيرا من الموضوعات عن نظم الشعوب الإسلامية وأحوالها وبخاصة في العصور الإسلامية الزاهرة ولا سيما أن الفقهاء يتجهون في بحوثهم الى الجوانب المتعددة من حياة المسلمين فيكتبون عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والمالية ، كما يتعرضون للعادات والتقاليد لذلك يمكن اعتبار كتب الفقه مصدرا ثميننا للمعلومات عن الأحوال التى كان المسلمون يعيشونها ، والمشكلات التى كانوا يتعرضون لها ، والعادات التى كانت تنتشر بينهم .

ومع كل ذلك فيجب أن تؤخذ المعلومات الواردة في هذه الكتب بعين المؤرخ النافذة ، وخاصة فيما يتعلق بالبيانات التاريخية التى تعرضت لها ^(٥) .

٢ - علم الحديث :

الحديث أو السنة عند المسلمين ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو اقرار ، حفظه الصحابة وأخذه عنهم تابعوه

(٤) انظر . العجم الوسيط ج ٢ ص ٧٠٥ .

(٥) سيدة كاشف : مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ،

القاهرة ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م صفحة ٧٨ - ٧٩ .

ويبحث هذا العلم في سند الأحاديث النبوية المنسوبة الى الرسول الكريم من حيث دقة روايتها ، وكيفية أخذهم الحديث ، ومدى سلتهم بنبي الاسلام . وقد أوضح ابن الأثير في جامع الأصول أهمية علم الحديث بقوله انه شانى أدلة الأحكام . والكتب المصنفة في علم الحديث كثيرة ، وأهمها صحيح البخارى ثم صحيح مسلم ويعرفان بالصحيحين ثم الموطأ للمالك بن انس ثم كتب في الحديث بعد هؤلاء الثلاثة أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذى ، وأبو عبد الرحمن النسائى ، وتوسعوا في جمع الأحاديث فزادوا على الصحيح منها ما هو دونه رتبة من الحسن وغيره . ومؤلفات هؤلاء الأئمة الستة هى إمهات الكتب في الحديث وتعرف بالسة الصحاح واليها النهاية فى هذا العلم ، وكل ما ألف بعدها فهو شرح أو تلخيص أو تعليق عليها .

٣ — علم فقه اللغة (الفيلولوجيا) :

وهو علم له أصوله وقوانينه الخاصة التى تفسر لنا تطور اللغات اللغة وقواعدها ، وكلما بعد العصر موضوع الدراسة ازدادت أهمية هذا العلم ، وأصبحت معرفته هامة وضرورية للمؤرخ اذ لا يمكنه فهم وثيقة قديمة أو نصوص تاريخية من عصر سابق الا اذا فهم معانى النماظها والكتابات التى كانت تستعمل فى ذلك الوقت ، وكثيرا ما يقع بعض الباحثين فى هذه الأخطاء نتيجة لعدم فهمهم لقوانين اللغة وقواعدها . مثال ذلك أن اللغة العربية فى القرن الماضى مختلفة عن العربية اليوم ، فقد تدهورت هذه اللغة فى العصر العثمانى بسبب تعدد الدخيل فيها ، وزحف اللغة التركية عليها وخاصة فى الدواوين الحكومية وخير مثال على تدهور اللغة العربية فى ذلك الوقت ما كتبه المؤرخ « عبد الرحمن الجبرتى » فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » و « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين » حيث يتضح مدى تأثر الجبرتى بطابع عصره فى انحطاط الأسلوب وشيوع العجمة فى التراكيب ، والتردى فى الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية ، بينما تغيرت هذه الأمور فى الوقت الحالى بعد أن تخلصت العربية من معظم الألفاظ التركية ، ومن هنا يتحتم على المؤرخ أن يكون ملما بالقواعد الأساسية لهذا العلم ، والتطورات التى حدثت له حتى يفهم النص التاريخى على حقيقته .

٤ — علم الأنساب :

هو علم تعرف به أنساب الناس ، بفرض الاحتراز عن الخطأ في نسب شخص^(٦) ، وقد حث الرسول الكريم على تعلمه بقوله : « تعلموا أنسابكم تصلوا أرحامكم » وقد استخدم العرب الأنساب باعتبارها من أنباط المعرفة التاريخية ، وأداة حضارية تناسب ظروف انقسام مجتمعاتهم إلى قبائل ، وبقيت الأنساب تؤدي دورها في خدمة المجتمع العربي على أنها من فروع التاريخ ، وكانت تحفظ شفاهاً عن ظهر قلب ، كما كان لكل قبيلة نسابتها المشهورون الذين يتفاخرون بأجداد الأجداد والآباء وقد ذكر النويري ذلك في كتابه « نهاية الأرب في فنون الأدب » وإلى جانب ذلك فإن المعرفة بعلم الأنساب من الأمور الأساسية التي يترتب عليها كثير من الأحكام الشرعية والمعامل الدينية ، وأحكام للوراثة ، وأحكام الأولياء في النكاح وأحكام الموقوف ، واعتبار النسب في كفاءة الزوج والزوجة في النكاح ونتيجة لذلك فإن المؤرخ غالباً ما يجد في علم الأنساب شجرات النسب التي يستطيع من خلالها التعرف على صحة نسب الشخصية التي يقوم بدراستها .

٥ — الحسبة :

الحسبة شرعاً كما يذكر ابن خلدون « وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »^(٧) وقد نشأ نظام الحسبة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث تولاه بنفسه ثم أفسرد لها والياً خاصاً ، وقد اقتدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالرسول فقام بوظيفة الحسبة بنفسه ، وكان كثير التجوال بين المسلمين ليلاً ونهاراً يوجههم بالالتزام بأحكام الدين ومقتضياته في أمورهم الدينية والدنيوية . وسار على بن أبي طالب رضي الله عنه على هذا المنوال فكان بطوف بأسواق الكوفة ليرى الأوزان والمقاييس التي يستخدمها الباعة .

(٦) للتفاصيل انظر جليبي : المصدر السابق ص ١٥٧ .

(٧) انظر : مقدمة ابن خلدون ص ١٩٧ .

وعن معنى الحسبة في اللغة انظر ، المعجم الوسيط ج ١ ص ١٧١ وابن منظور : لسان العرب ص ٦٢٩ — ٦٣١ .

ولما اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وكثرت مهام الدولة وتخصصت وظائفها صارت الحسبة من أهم الأجهزة الإدارية في النظام الاسلامي وأصبح المحتسب يشرف على الشؤون العامة من مراقبة الاسعار ، ورعاية الآداب ومراعاة احكام الشرع والنسهر على حماية المجتمع (٨) .

والحسبة صلة قوية بخصائص القضاء ونظر المظالم ، فالمحتسب يفصل في المنازعات الظاهرة التي لا تحتاج الى أدلة ، كما يتولى تأديب من يجاهر بالمعاصي ، أو يخرج على المألوف من أدب المسلمين ونتيجة لذلك وصف الماوردي الحسبة بأنها وسط بين أحكام القضاء وأحكام المظالم (٩) .

وكتب الحسبة تحرى العديد من الموضوعات والبيانات الهامة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية في البلدان الاسلامية والتي يمكن أن تكون من المصادر الأساسية التي تساعد المؤرخ في التعرف على أحوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية وغيرها .

٦ — العملات أو النميات أو المسكوكات :

تعد دراسة العملات الاسلامية أساسا هاما لدراسة التاريخ السياسي والاقتصادي للدولة الاسلامية ، فالكتابات المنقوشة على السكة تتضمن أسماء الخلفاء والسلطين والقابهم ، وتاريخ الضرب ، وبعض عبارات خاصة بالمذهب الديني السائد ، والمدينة التي ضربت فيها العملة . ولذلك فإن العملات تعد سجلا للألقاب والنوعت التي توضح كثيرا من الأحداث السياسية والاقتصادية ، فتفيد في تحقيق الكثير من الحوادث مثل فتح بعض البلاد عنوة أو صلحا ، كما تفيد في معرفة الحالة الاقتصادية للعصر الذي استعملت فيه هذه العملات للتداول ، وإلى نوع الفقد المستعمل وأشكاله (١٠) .

(٨) للتفاصيل انظر البغدادى : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ، المكتبة العلية ص ٥ .

(٩) انظر الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٤١ .

(١٠) سيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨١ ص ١٥٦ — ١٦٦ .

— علم قراءة الخطوط (الباليوجرافيا) Phaleography

يتحتم على المؤرخ التعرف على هذا الفن الذى يستخدم فى قراءة خطوط اللغات القديمة كالفرعونية والاعريقية واللاتينية . فالمؤرخ الذى يقوم بدراسة تاريخ مصر القديم تضطره طبيعة بحثه الى معرفة الكتابة الهيروغليفية (الخط المقدس) الذى استطاع شمبلون Champollion التوصل الى أسرارها بعد اكتشاف حجر رشيد Rosetta Stone فى عام ١٧٩٩ م .

والباحث الذى يقوم بدراسة علاقات العرب مع أوروبا العصور الوسطى يفرض عليه بحثه معرفة الكتابة اللاتينية كما يتحتم على الباحث فى تاريخ الدولة العثمانية أن يتعرف على الخط الديوانى الذى كانت تكتب به الأوامر السلطانية وعلى خط القيمة الذى كان يستخدم فى شئون الدولة العثمانية الادارية والمالية حتى يستطيع تفهم وثائق ذلك العصر .

٨ — اللغات :

العلم ليس له وطن وليس وقفا على أمة من الأمم بل هو تجارب شاركت فيها معظم الأمم لذلك فان المؤرخ فى أشد الحاجة الى التزود ببعض اللغات حتى يستطيع القيام بالمقارنة ، وفهم ما تعرضه الاطراف المتعددة التى لها دخل فى موضوع دراسته ، وخصوصا ان الترجمة وحدها لا تكفى . وتختلف نوعية اللغات التى يجب على المؤرخ معرفتها وفقا لتخصصه ومؤرخ التاريخ القديم اذا اراد دراسة فترة من فترات تاريخ مصر الفرعونية فيبحث عليه معرفة الهيروغليفية والسديموطيتية والانجليزية وغيرها . ومؤرخ التاريخ الاسلامى او الوسيط اذا اراد دراسة تاريخ احدى البلدان العربية فى العصر العباسى فلا بد له من التعرف على اللغات العربية والتركية والفارسية . ومؤرخ التاريخ الحديث اذا اراد التعرض لتفاعلات عصر النهضة الأوروبية فلا بد له من معرفة اللغة اللاتينية المتأخرة ، واذا اراد التعرض لتاريخ المسألة المصرية خلال القرن التاسع عشر فلا بد له أن يكون ملما بالانجليزية والفرنسية والتركية هذا بالاضافة الى لغته الأصلية حتى يستطيع أن يتفهم الوثائق الخاصة بهذا الموضوع . واذا اراد أن يدرس

الصراع في أوروبا من أجل السيطرة على المستعمرات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فلابد له من معرفة اللغات الفرنسية والألمانية والإيطالية وغيرها . وهذا يعنى أن مؤرخ التاريخ الحديث مثلا قد يكون أقل حاجة لمعرفة اللاتينية القديمة من مؤرخ التاريخ القديم أو الوسيط .

١ - علم الوثائق Diplomatics

مفهوم الوثيقة يشمل كل اثر مكتوب أو محفور أو منقوش والدارس لهذا العلم يجمع بين عمل الآثاري في حفره وتنقيبه وعمل المحقق الباحث في فك الرموز والطلاسم التى يقدمها النص وبخاصة فى الوثائق التركية العثمانية والفارسية أو العربية التى كتبت فى العصر العثمانى وما يقسرب منه والى جانب ذلك فان علم الوثائق يساعد المؤرخ على التعرف على تطور علم الخطوط والتعرف على أسلوبها وفهم مصطلحاتها عن طريق معرفة نوع الورق أو الزجاج أو المادة التى كتبت عليها الوثيقة ، كما يساعده على التعرف على الاحبار التى استخدمت فى كتابة الوثيقة ^(١١) والخاتم الذى مهرت به ونوعه .

والوثائق تعد بمثابة المادة الخام التى يصنع منها التاريخ والتى يمكن أن تنطوى على افكار جديدة وخلقة ، لأنها بقيت على حالتها التى صيغت بها ، ولأنها أقدم مصدر يمكن العثور عليه لايضاح حدث معين ، ولأنها الشئ الوحيد الباقى من الواقعة التاريخية ، والاساس الوحيد الذى يقوم عليه التاريخ ^(١٢) .

وعلم الوثائق أو علم الدبلوماسية Diplomatics يعد من العلوم الأساسية فى الدراسة التاريخية لذا ينبغى على المؤرخ التعرف على المصطلحات الخاصة بالوثائق التى يقوم بدراستها حتى يجد بين سطورها من الحقائق ما يستكمل به بعض الحلقات المفقودة فى التاريخ .

(١١) قاسم السامرائى : مقدمة فى الوثائق الاسلامية ، الرياض ، دار العلوم ، الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ ص ٧ - ٨ .
(١٢) بدوى : المرجع السابق ص ٢١٨ .

وعلى الرغم من أهمية الوثائق فإنه ينبغي على المؤرخ أن يعلم أنها يمكن أن تتأثر بالبول والأحكام الشخصية من جانب من يسجلونها ، كما ينبغي عليه أيضا الحذر والحيلة الدائمة من قيام البعض بتزوير الوثائق من أجل تثبيت ادعاء أو لقب باطل ، وأحيانا أخرى تزيف الوثائق من أجل بيعها فقد ظهرت رسائل مزورة للملكة « ماري أنطوانيت » كما اتضح أن المذكرات التي نسبها البعض الى هتلر مزورة . ولكي يميز المؤرخ الوثيقة الأصلية من المزيفة أو المحرفة يجب عليه أن يستخدم الاختبارات المتبعة في هذا الأمر ، فتختبر المواد الكتابية للحكم عليها أكانت معروفة في التاريخ الذي ترجع اليه الوثيقة . فمثلا الورق كان نادرا في أوروبا في القرن الخامس عشر ، والطباعة كانت مجهولة آنذاك وأما أقلام الرصاص فلم يكن لها وجود هناك قبل القرن السادس عشر ، وأما الطباعة على الآلة الكتابية فلم تعرف الا في القرن التاسع عشر ، وكذلك يفحص المؤرخ الجبر بحثا عن العلامات التي تحدد عمره أولا ، باحثا عن تركيب كيماوي يثبت أنه متأخر عن تاريخ الوثيقة . وبعد أن يبذل جهده في معرفة مؤلف الوثيقة يحاول — اذا كان في استطاعته — أن يتحقق من الخط والتوقيع ، والخاتم ، وأصل الورق أو العلامة المائية المميزة في الورق ، ومقارنة الخط بعينات أخرى منه ^(١٣) وخاصة أن هجاء الكلمات وضبطها قد يكشف التزوير .

١٠ — علم الآثار Archology

هناك صلة وثيقة بين علم الآثار وعلم التاريخ ، فمنذ أن اكتشف فرنسوا شامبليون Champollion في عام ١٨٢٢ رموز الكتابة الهيروغليفية صار من عمل المختصين بدراسة تاريخ مصر القديم ، وعلماء أوراق البردى إمداد المؤرخ بترجمات للنصوص والنقوش التي يعثرون عليها . وصار مؤرخو العصور القديمة يعتمدون اعتمادا كبيرا على النتائج العلمية التي يتوصل اليها علماء الآثار الذين يقومون بحفر الأرض بمعاولهم ، ويقومون تحت لهيب الشمس الحارقة بهدف كشف مجرى الحضارة الانسانية وخاصة ان هؤلاء المؤرخين يجدون ماضي البشرية يبرز

(١٣) جوتشاك : المرجع السابق ص ١٤٣ .

من خلال الآثار والمذونات من بقايا الماضي التى تركها السلف والتى تعد فى بعض الأحيان المصدر الوحيد لبعض حثب التاريخ القديم . فقد امد علم الآثار مؤرخ التاريخ القديم بمعلومات هامة عن الطقوس الدينية والحياة الأسرية والاجتماعية والحرف والتقاليد والعادات فضلا على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى عاشتها بصر خلال هذه الأيام . وهذه المعلومات فى مجملها تعتمد على الآثار الصامتة دون النصوص الناطقة وتستند على أساس من البيان الصامت الصادق الذى يترك المؤرخ أعمال القدماء ومخالفاتهم تتحدث عن نفسها بهدف معالجة قصة الانسان وحضارته خلال آلاف عديدة من السنين ، والكشف عن نشأة المدنية وتطورها .

وحول أهمية الآثار بالنسبة لمؤرخ التاريخ الإسلامى فان مؤرخى التاريخ الإسلامى يعتمدون أيضا — وفى كثير من الأحيان — على النتائج العلمية التى يتوصل اليها علماء الآثار الإسلامية بغرض الوصول ببحوثهم فى تاريخ العرب والمسلمين الى ما هو اقرب الى الكمال وخاصة ان الآثار الإسلامية تعد من المصادر الأصلية فى كتابة التاريخ الإسلامى ، كما ان الزخرفة الإسلامية راعت أصولا من أصول العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامى . ومن هنا تكون طرافتها وقوتها ثم تأثيرها فى الكتابة التاريخية .

١١ — علم الجغرافيا :

قام علم الجغرافيا أو تقويم البلدان كما عرف عند العرب على رحلات الرحالة والجغرافيين الى الاقطار والبلدان المختلفة ، ودراسة تضاريسها وجبالها ووديانها وانهارها ومناخها ، عادات سكانها ، وطرقها وشعبها وحاصلاتها .

وقد تميز هؤلاء الرحالة بنظرتهم الواقعية الى مختلف الموضوعات التى كتبوا عنها ، وكان من أبرز هؤلاء السعودى فى كتابه « التنبيه » و « مروج الذهب » والمقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم » والادريسي فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وابن حوقل فى « المسالك والممالك » وقد ارتبطت كتابة التاريخ عند المسلمين بعلم الجغرافيا الذى يعد من العلوم المساعدة الأساسية لدراسة التاريخ وخاصة ان الأرض هى

مسرح العمليات الذى تحدث عليه الوقائع التاريخية وهى ذات اثر كبير فى توجيه مصاير البشرية ، فهى التى تطعم الانسان وتؤثر فى مستوى حياته ، وفى فكره وحضارته . هذا الى جانب أن الواقعة التاريخية مرتبطة حتماً بمكان وزمان معينين ، والا فقدت قيمتها التاريخية الحقيقية .

والى جانب ذلك فان للمناخ اثره الواضح فى تشكيل قدرات الانسان ومواهبه ، فالانسان الذى يعيش فى مكان حار مثلاً يختلف عن نظيره الذى يعيش فى مكان بارد من حيث نوعية اهتماماته وقدراته ومدى تأثره فى المجتمع الذى يعيش فيه . ولقد كان المناخ فى مصر مثلاً عاملاً مهماً فى طبع النفس البشرية بالسوية لعدم اتسام المناخ بالانقلابات الفجائية ، وقد يكون لذلك اثره فى انتشار روح الدعابة والنكتة بين المصريين يضاف الى ذلك أن المناخ يمثل عاملاً مهماً فى استكمال القدرة على تفاعل الانسان مع البيئة ، فنحن نجد اهل البيئة الصحراوية أحد مزاجاً من غيرهم والشعر الجاهلى مثلاً صورة صادقة لطبيعة البادية ، وحياة البدو فالفاظله خشنة ، واخيلته مجذبة فى معظم الاحيان . والى جانب ذلك فان الموقع الجغرافى لاي بلد قد يؤثر فى تقدمه الحضارى وتطوره الاقتصادى ، وفى نشر العلوم والفنون بين افراده وعن ذلك يذكر ابن خلدون أن مجرى التاريخ يعتمد على ظروف البيئة أكثر مما يعتمد على دور الناس .

١٢ — علم الانسان (الأثروبولوجيا) :

ربما كان علم الانسان أشد العلوم الاجتماعية ملائمة للمؤرخين ، وخاصة أن هذا العلم يعالج بالضرورة المسائل التاريخية عند تتبعه مجرى التطور البشرى ، وانتشار البشرية على سطح الأرض ، ونشوء الثقافات الانسانية ، وتتبع الحلقات السلافية فى سلسلة تاريخية متتالية من الظواهر المترابطة ، وكل ذلك يمد المؤرخ بأعظم فكرة مباشرة .

١٣ — علم الاجتماع :

إذا قلنا أن علم الاجتماع يدور حول بناء المجتمع ومشكلات الأسرة ، فانه بذلك يساند الباحث فى التاريخ الاجتماعى ويكسبه أفكاراً ومبركات

جديدة بدراسة ما كتبه علماء الاجتماع حول موضوعات مثل : الاخلاق ، والعادات ، والتقاليد ، والنوى الاجتماعية ، والمؤسسات وغيرها كما أن حراسة الانتقال في الامم الصناعية المتقدمة من مرحلة العادات والأعراف الشعبية الريفية الى العادات والأعراف المدنية توفر فرصة ممتازة في مجال التعاون بين المؤرخين وعلماء الاجتماع .

١٤ - علم النفس :

يحتاج المؤرخ الذي يترجم حياة الأشخاص الى التعرف على اساليب المعالجة النفسية ، حتى اذا تعرض لدراسة احدى الشخصيات كان مدبرا على المناهج النفسية فركز تركيزا قويا على عمليات نشوء الشخص-ية وتكوينها ، وعلى وصف سلوك الفرد وتحليله على اساس الادوار الاجتماعية التي قام بها ، والتفاعلات التي تعرض لها تجاه احداث معينة . وكذلك فان محاولات التعرف على المكونات النفسية لشعب من الشعوب تساعد على تفهم الكثير من الاحداث التاريخية التي تعرض لها افراد ذلك الشعب والى البرهنة على قضايا معينة . ومن هنا فان العلوم النفسية لها أهمية بالغة لدى المؤرخ لأنه يستطيع عن طريقها التعرف على الكثير من مشكلات الحاضر ، والتنبؤ باتجاهات المستقبل .

١٥ - الموسوعات التاريخية والمعاجم :

كلمة موسوعة ترجمة لكلمة Encyclopædia الامرنجية وهى لفظ مركب من ثلاثة مقاطع هى en بمعنى فى ، Syclo بمعنى دائرة ، pedia بمعنى تعليم فتكون الترجمة الحرفية لهذا اللفظ « فى دائرة التعليم » ولذلك ترجمها البستاني « دائرة معارف » واطلق عليها صاحب مفتاح السعادة اسم موسوعة . وتعد الموسوعات بمثابة خلاصة جهود العلماء والباحثين .

ويرجع بداية عصر الموسوعات الى رغبة علماء المسلمين فى انقاذ الثقافة الاسلامية بعد سقوط بغداد على ايدى التتار فى عام ٦٥٦هـ وذلك عن طريق جمع المواد التى تتألف منها هذه الثقافة فى كتب كثيرة على

شكل موسوعات عظيمة لاتدع صغيرة ولا كبيرة من مواد هذه الثقافة
إلا أحصتها .

والموسوعات العربية عديدة ، وسنكتفى في هذا المقام بعرض أربع
منها وهى :

كتاب نهاية الأرب للنويرى .

وكتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العبرى .

وكتاب صبح الأعشى للقلقشندى ثم الموسوعة العربية الميسرة التى
أشرف على ظهورها الى الوجود الاستاذ محمد شفيق غربال .

اولا — نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى :

وقد تم تأليف هذه الموسوعة في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون
وذلك في ثلاثين جزءا وقد ذكر صاحبها أنها تشمل خمسة فنون ، حسنة
الترتيب ، بينه التقسيم والتبويب ، كل فن منها يحتوى على خمسة
أقسام :

الفن الأول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية .

والفن الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به .

والفن الثالث : فى الحيوان الصامت .

والفن الرابع : فى النبات .

والفن الخامس : فى التاريخ .

ويبدو أن المؤلف أراد من كتابه موسوعته أن يلم بأكثر العلوم والمعارف
الانسانية فى عصره حيث يدرك القارئ انه مزج فيها العلوم بالآداب ، وأن
كانت الصنعة الأدبية غالبية على هذه الموسوعة .

ومن اليسير على كل متفحص لهذه الموسوعة أن يعرف أن صاحبها
اعتمد فى كتابتها على مصادر متعددة منها كتب ابن المقفع وابن قتيبة
والموردى والجرجاني والجاحظ وغيرهم .

ثانيا : مسالك الابصار لشهاب الدين العمري :

وقد تم تأليف هذه الموسوعة ايضا في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وذلك في أربعة عشر جزءا وموضوع الموسوعة هو الجغرافيا أو علم البلدان وهو كما يذكر المؤلف « وصف الأرض وما اشتملت عليه برا وبحرا وهو قسمان : أولهما — في الأرض وثانيهما — في سكن الأرض . والقسم الأول منهما نوعان : أولهما المسالك ، وثانيهما الممالك .

أما المسالك ففيها وصف لمقدار الأرض وهيئتها وذكر للاقاليم السبعة ، والبحار وما يتعلق بها ، وذكر للطرق ، وذكر للقبلة ، وكيف يستدل عليها وغير ذلك . وأما الممالك ففيها وصف تفصيلي للبلدان الاسلامية دون غيرها من الممالك الأخرى .

وأما القسم الثاني من الموسوعة فينقسم الى أبواب منها باب في الديانات ، وباب في المقارنة بين المشرق والمغرب وباب في طوائف المتدبرين ثم باب في التاريخ .

ومؤلف هذه الموسوعة يعنى في دراسته عناية واضحة ببصر وشعرائها وحياتها الاجتماعية والادبية أكثر من عذائته بالانقطاع الاسلامية الأخرى ، كما أنه ينتقل في كتاباته من الجغرافيا الى العديد من المعارف الأخرى مثل التاريخ والأدب والدين والآثار .

ثالثا : صبح الاعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي :

حصر القلقشندي نفسه في هذه الموسوعة في صناعة الإنشاء ، وإن كان قد اتخذ من حديثه عن الإنشاء وسيلة الى جمع العديد من المعارف الانسانية في عصره وعن مادة الموسوعة فقد جعلها المؤلف في مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ففى المقدمة تعرض لفضل الكتابة وحدد معانها لفظة واصطلاحا وبين معنى الإنشاء وغير ذلك من الموضوعات .

وفى المقالة الأولى تحدث القلقشندي عما يحتاج اليه الكاتب من النحو والصرف والبديع والبيان وأشعار العرب وأنسابهم ، ومعرفة المداد وأنواع الاقلام حتى تكون كتاباته ذات فائدة وقيمة .

وفى المقالة الثانية تحدث المؤلف فى الجغرافيا عن المسالك والممالك وشكل الأرض والبحار ثم تطرق الى التاريخ فتعرض للعديد من حكام المسلمين من عصر الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين فالفاطميين ثم تطرق الى حكام المسلمين فى المغرب والاندلس .

وفى المقالة الثالثة تعرض المؤلف للألقاب وأرباب الوظائف الادارية ، وما تفتتح به الكتابة وما تختتم وأسهب فى وصف الورق وادوات الكتابة . وفى المقالة الرابعة موضوعات عن البلاغة والشعر والصيغ الكتابية وتاريخها .

وفى المقالة الخامسة حديث عن الولايات وبيان طبقاتها وعن البيعات والعهود وما شاكل ذلك .

وفى المقالة السادسة حديث عن الوصايا الدينية ، والمقارنة بين السنن الشمسية والقمرية .

وفى المقالة السابعة حديث عن الاقطاعات والمقاطعات وأصلها فى الشرع .

وفى المقالة الثامنة تعرض المؤلف للأيمان واللغو فيها ونحو ذلك .

وفى المقالة التاسعة تحدث المؤلف عن عقود الصلح والهدنة بين المسلمين وغيرهم وبين ملوك المسلمين وبعضهم .

وفى المقالة العاشرة تناول المؤلف بالحديث الكتاب والكتابة وقارن بين الكتابة الجدية والكتابة الهزلية .

أما فى الخاتمة فقد تعرض المؤلف للبريد وحمام الزاجل ودوره فى نقل الرسائل الى آخره .

رابعاً : الموسوعة العربية المبصرة :

بذلت العديد من الجهود من أجل عمل موسوعة عربية مبصرة تسهل للباحثين والمثقفين الحصول على مطالبهم بسهولة ويسر ، ونتيجة لذلك

شرعت مؤسسة فرانكلين للطبع والنشر بالقاهرة في عام ١٩٥٨ في اخراج موسوعة عربية مختصرة في مجلد واحد فكانت مجلسا يضم سبعة عشر عالما واديبا من مصر ومن السودان والشام والكويت برئاسة الأستاذ محمد شفيق غريال مدير معهد الدراسات العربية في ذلك الوقت يتولى ادارة العمل وتنظيمه فاستعان هذا المجلس بعدد كبير من الخبراء في مختلف فروع المعرفة من ادب واجتماع ودين وطب وتاريخ وغير ذلك .

وبدا مجلس الموسوعة عمله متخذا اساسا له موسوعة (كولمبيا فايكنج دسك) ذات المجلد الواحد المطبوعة سنة ١٩٦٠ ، واستعان بخبرة القائمين باخراج تلك الموسوعة ولم يقف جهد أولئك العلماء على مجرد التعريب ، بل ظهر لهم بعد العمل أن ما يجب حذفه من موسوعة كولومبيا كثير ، وأنه يجب أن يضاف اليها اكثر بحيث لم يبق بعد الحذف والاضافة سوى ما يقارب ستين في المائة من تلك الموسوعة . أما الأربعون في المائة فهي مواد جديدة أو معدلة تعديلا جوهريا .

وقد حرص مجلس المديرين على أن تكون هذه الموسوعة عربية حديثة بمعنى الكلمة ، وأن تخرج في أسلوب واضح جذاب وهذه الموسوعة أول عمل موسوعي من نوعه يصدر بالعربية من حيث كونها موسوعة عامة للعرب ، ومن حيث كونها مبسطة مركزة في مجلد واحد ، وفي حجم معقول .

لقد تآزرت جهود كبيرة لاجراء هذا الاثر العلمى المتميز فخرجت الموسوعة في مجلد يقع في ألفى صفحة ، تناولت واحدا وعشرين ألفه موضوع . والموسوعة مألوت فراغا يحس به كل باحث في أى مجال من مجالات البحث التاريخى ، وإن كانت قد أهملت ذكر كثير من الموضوعات المهمة ومن تراجم العلماء (١٤) .

هذا عن الموسوعات اما عن المعاجم فكثيرا ما تسهل للباحثين

والمؤرخين مهمتهم وترشدهم الى الطريق السوى وتعينهم على الدرس والتفتيش ، وتوجههم بسهولة الى مطلبهم دون ان يتكبّدوا عناء عظيمه او يضيعوا وقتا طويلا ومن ابرز المعاجم التى الفت فى هذا المجال :

١ — المعجم الوسيط :

وقد قام بوضعه لجنة من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ويشتمل هذا المعجم على نحو ٣٠ ألف مادة ، ومليون كلمة ، وستمائة صورة ، ويقع فى جزئين كبيرين يحتويان على نحو ١٢٠٠ صفحة من ثلاثة اعمدة ، وأهم ما يميزه انه مجدد ومعاصر يضع الفاظ القرن العشرين الى جانب الفاظ الجاهلية وصدر الاسلام ، كما انه اوضح وأدق وأحكم منهجة من غيره من المعاجم الأخرى .

٢ — القاموس المحيط :

ترجع أهمية هذا القاموس الى اختصاره مع المامه فى الوقت نفسه بستين ألف مادة من مواد اللغة وهو مرتب على احرف الهجاء ، والقاعدة فى ترتيبه انه جعل اول الكلمة بعد تجريدتها بابا وآخرها فصلا .

ومن عيوب هذا القاموس انه يعرف لفظه بلفظة دون ان يذكر الفرق بينهما ، وذلك من حيث المعنى أو من حيث اللزوم والتعديّة ثم ان صاحب القاموس يورد المصدر دون ان يذكر الفعل .

٣ — لسان العرب لابن منظور :

وهو معجم غزير المادة بلغت مواده ثمانين الفا وقد أشار مؤلفه فى مقدمة معجمه انه اطلع على أكثر المعاجم التى الفت فى عصره ولكنه مع شدة اعجابه بها ، وثنائه عليها كان يجد فى كل واحد منها نقصا .

وقد توسع ابن منظور فى شرح المادة الغوية واستطرد احيانا الى ذكر أشياء ربما كانت بعيدة عن الموضوع .

٤ — الدر المنثور في طبقات ربات الخدور لزینب فواز :

وفیه ترجمت مؤلفته لعدد کبیر من شهرات النساء العربیات والأوربیات ، ورتبتھن فی أغلب الاحیان علی حروف المعجم .

٥ — معجم الأطباء لأحمد عیسی :

وقد ذیل به علی عیون الأنباء فی طبقات الأطباء لابن أبی أصیبة ، ورتبھم علی حروف المعجم وذكر النسبة والشهرة للمترجم ، وأحال الی اسمه .

٦ — حلیة البشر فی تراجم القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البیطار . وترجم فیہ لمشاہیر هذا القرن ورتبھم فی معظم الاحیان علی حروف المعجم .

٧ — روض البشر فی أعیان دمشق فی القرن الثالث عشر لمحمد جمیل الشطی ، وقد ترجم لهؤلاء الأعیان ورتبھم حسب اسم المترجم .

٨ — قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربین والمستشرقین لخير الدين الزركلی وقد اقتصر المؤلف فی الترتیب المعجمی علی اسم المترجم وأبیہ ، كما أثبت الشهرة الی عرف بها المترجم وأحال الی الاسم .

٩ — اعلام النساء فی عالمی العرب والإسلام لعمر رضا كحالة . وقد رتب علی حروف المعجم علی اسم المترجم فابیہ فجده .

١٠ — معجم قبائل العرب القدیمة والحدیثة لعمر رضا كحالة . وهو یبحث فی القبائل العربیة وأغذاها قبل الإسلام وبعده ، ویذكر أصولها وفروعها ، وجبالها ، وأودیثها ، وعاداتها وقد رتب علی حروف المعجم اسم المترجم فابیہ فجده .

١١ — معجم المؤلفین لعمر رضا كحالة ، وقد رتب علی حروف المعجم اسم المترجم فابیہ فجده .

ولا یفوتنا أن نؤكد علی ضرورة أن یبذل بعض المتخصصین فی عمل

المعاجم جهودهم لوضع بعض المعاجم التاريخية التى تفتقر اليها المكتبة العربية مثل .

(ا) معجم تاريخى للبلدان العربية .

(ب) معجم للمصطلحات الأثرية .

(ج) معجم للمصطلحات التاريخية .

(د) معجم تاريخى لاهم الاماكن التاريخية فى مصر .

(هـ) معجم للمعارك الحربية التى خاضتها مصر على مر العصور .

حقيقة لقد بذل مجيع اللفة العربية العديد من الجهد لوضع مجمع تاريخى للغة العربية (١٥) ، كما بذلت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بعض الجهود لعمل قاموس للشخصيات التى ساهمت فى تاريخ مصر (١٦) ، ولكن هذه المشروعات لم ترد النور بعد . والامل يحدونا فى أن تتضامر الجهود لآخراج هذا الانجاز الهام .

والجدير بالذكر أن الموسوعات تختلف عن المعاجم ففى حين تتميز الموسوعات بالشمولية وتوفر المعرفة للباحثين والدارسين من كافة جوانبها ومناحيها فان المعاجم تقتصر فى منهجها على توضيح مصطلحات وتعريفات فى عام معين دون غيره من العلوم كمعاجم اللفة مثلا او معاجم البلدان او غيرها .

ومع ذلك فالعمل فى الموسوعات والمعاجم يحتاج الى جهود ضخمة وعمل شاق متواصل قد يطول مداه وربما تطوى فيه أعمار دون أن تدرك غايته ومنتهاه .

(١٥) للتفاصيل انظر . المعجم الوسيط ص ٦ - ٧ .

(١٦) انظر كتابنا : الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - دراسة تاريخية لمؤسسة علمية .

١٦ — تاريخ الأدب :

العمل الأدبي ميزان دقيق يزن فنا رغيعا صبت فيه الانسانية خلاصة تجاربها وخبراتها ، وعبرت فيه عن مشاعرها وأحاسيسها ، وحملت آلامها وأمانها وتاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة البشرية ، فالأدب الفرنسي مثلا يضم في سجله الفن كل تيارات الأفكار والمشاعر التي امتدت الى الأحداث السياسية والاجتماعية أو تركزت في النظم . والتاريخ الأدبي يشابه في صميمه المنهج التاريخي فهو يحاول أن يصل الى الوقائع العامة ، وأن يميز الوقائع الدالة ، ثم يوضح العلاقة بين الوقائع العامة والوقائع الدالة . لذلك كان من المفيد للباحث في التاريخ الرجوع الى تاريخ الأدب ليستقى منه المعلومات التي ربما لا يجدها في الوثائق أو المصادر الأصلية وخاصة أن موضوع التاريخ هو الماضي ، وتاريخ الأدب يدرس الماضي أيضا^(١٧) .

١٧ — الفهارس :

يتوقف تقدم الدراسات التاريخية على تنظيم دور الوثائق والمكتبات ، وهذا يعنى أن عمليتي الفهرسة والتصنيف ضروريتان لتوفير جهود الباحثين خلال تعرفهم على المادة العلمية لبحوثهم . وقد ساعد انشاء أقسام الوثائق والمكتبات بالجامعات على تخريج العديد من المتخصصين في هذا العلم .

والى جانب ما سبق ذكره فمن المفيد أيضا أن يلم المؤرخ بطائفة أخرى من العلوم المساعدة مثل المنطق الذى يفيد فى عملية البناء التاريخي، وتتهم موضع التاريخ بين سائر العلوم هذا الى جانب علم الأجناس ، وعلم الاقتصاد ، وعلم السياسة وعلم السكان والاحصاء والفلك والنبات والحيوان وغيرها .

(١٧) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، القاهرة ، دار نهضة

مصر د.ت.هـ ١٣٩٧ .